نابغة في التاريخ عمر ابو نصر

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

لا يزال التاريخ المصريّ في هذه البلاد في مهده . فاذا استثنيت بعض التآليف القليلة المبنية بتعمّق اصحابها في المطالعة والدرس وحسن الانتقاد وجدت بين مؤرخينا ومؤرخي الافرنج بوناً عظيماً

ومن ثمّ يسرّنا أن نرى وزارة المعارف تهتمّ لهذا الامر وتُعنى بسدّ هذا الخلل ولاسيما بتسطير تاريخ الوطن اي سوريّة ولبنان على طريقة سهلة قريبة المنال ليوضع في ايدي طلبة المدارس فيقفوا على اخبار بلادهم الصادقة ويتّخذوها عبرة لحياتهم وخدمة وطنهم فيمكنوا القويم ويثقّفوا الأَوَد ويقيموا العوج

وهذا تاريخ جديد طُبع مؤخّراً في جزئين عنوان الواحد « تاريخ سوريّة ولبنان حتى اوّل القرن التاسع عشر » والثاني « سوريّة ولبنان في القرن التاسع عشر » قيل لنا « عُرض على اللجنة المخصّصة لدرس الكتب فقرّرته لدروس الجمعيّة للمدارس »

فسُررنا بصدوره لا لقراءة بلادنا من تواريخ سابقة عربية وافرنسية ولكن لاملنا بالحصول على فوائد جديدة بخصوص احوال الوطن فنزيد حبّاً له وتفانياً في سبيله

المؤرخ

ليس اعوص من تصنيف تاريخ لسوريّة ولبنان . والسبب واضح لان هذه البلاد لوقوعها وسطاً في ممرّ الامم لم تكد تذوق طعم الاستقلال وهناء الراحة فيمتزج تاريخها بتاريخ كلّ الدُّول التي فتحتها واستولت عليها منذ البابليين والاشوريين الى الدولة التركية . فمن اراد ان يكتب تاريخها لا يستغني عن الالمام بتاريخ تلك الشعوب

ومن ثمّ أحببنا ان نعرف من هو هذا المؤرخ الجديد الذي تحفّز لهذا العمل ولا بُدّ ان وزارة المعارف وجّهت اليه النظر لآثار تاريخيّة سابقة اشتهر بها

فبحثنا في مكتبتنا الشرقيّة الواسعة لعلّنا نجد له اثراً ما فخاب أملنا ولم نجد لعمر افندي ابو نصر مقالة واحدة لا في التاريخ ولا في غيره

فقلنا انهُ احد المنعكفين على مطالعة تواريخ البلاد وفردٌ من شيوخ العلم المتقطعين بالمُزلة منذ سنين طويلة الى جمع موادّ تاريخهِ المبتكر الذي لم يشأ عرضهُ على العموم إلّا بأن يُحسن سبكهُ ويمحصهُ محص الذهب بالنار قبل ان يخرجهُ الى العموم. فقيل لنا ونحن لا نعرف جنابهُ شخصيًا انهُ من النشأة الجديدة ومتى لم يُنتظر من جانبه كتاب مثل هذا لقلة استعدادهِ لوضعهِ

على اننا لم نرضَ بمثل هذا الجواب وقطعنا بدرس الكتاب لا لننظر مَن قال بل لما قال فيكون حكمنا عن بصيرة دون ان يشوبهُ شيء من الاغراض الشخصية

نظر عام في تاريخ سوريّة ولبنانه

يؤخذ من اوّل نظر لعنوان الكتاب انهُ وُضع بزمن قليل لا يتجاوز بضعة اشهر اذ تقرّر تدريسهُ في «مدارس الجمهوريّة اللبنانيّة» وكلّ يعلم ان الجمهوريّة اللبنانية حديثة النشأة فكيف امكنها في هذه المدّة القصيرة ان تفحص الكتاب وتقرّرهُ لمدارسها. فما قول وزير معارفها الجديد ؟

ويؤيد فكرنا في سرعة تصنيفهِ انّ المؤلف ذاتهُ يقول في مقدّمتهِ انهُ «صرف في تأليف هذه السلسلة اشهرًا» فماذا يكون يا تُرى تاريخ كهذا صدر بهذه العجلة او ليس هو أحرى بان يدعى عجالةً ؟

على انّ من يقرأ المقدّمة المذكورة يأخذهُ العجب ممّا تكلّفهُ مصنّف الكتاب في إخراجهِ الى عالم الوجود فكدّ ذهنهُ وأسهر جفنهُ فحقّ لهُ ان يكرّر قول شيخ المعرّة

فإني وان كنتُ الاخيرَ زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعهُ الاوائلُ

فاسمع يا رعاك الله كلام المؤلف الذي حمل على عاتقهِ هذا الطود الشاهق فلم ينؤ تحت عبئهِ. قال في مقدّمة جزئهِ الاوّل:

«لقد اجاهد نفسي جهادًا شديدًا لأنني من تبيان ما لهذا السل من خطر وما لهُ من فضل ونفع. ذلك انّ هذه السلسلة نفسها ستُظهر للناس هذا النفع وهذا الخطر...

«اخذنا بأطراف الموضوع وتكلّمنا فيهِ في موضعهِ وعلى وجههِ وتطرّقنا في مختلف الآراء ومتفرّق الآثار نحكّم العقل في استخراج الحقيقة الضائعة ونصل حبل إلباسها زيًّا اقلّ ما فيهِ انهُ عربيٌّ مبين... وبنا الى هذا حاجة شديدة. فقد نفر البعض من بني قومنا يؤلّفون الكتب ويطرحونها على الناس، يصيب شرّها الحصى والاكياس، كذلك انوبأ بشيء نوادي البلاد فلا يفتي ولا يَذَر»

فترى انَّ مؤرخنا اصاب عين الكمال وانهُ حقق ودقَّق الى ان استخرج الحقيقة الخالصة بينما لم يأتِ غيرهُ الَّا بكتابات «يعيب شرُّها الحمقى والاكياس» بل هي «وبأ يفشي نوادي البلد فلا يبقي ولا يذر!!!» . فافهم العبر وله الدرّ

وزاد على ذلك في مقدّمة الجزء الثاني اثباتاً لفضله العميم في تأليفه البديع فقال :

عُنيت بجمع فصوله، وانا اقرب ما اكونُ اليهِ، واشوقُ ما اكون لرجالهِ وشهودهِ، اعدّ عليهم ما قصّروا فيهِ من امرٍ، وما تقيّدوا بهِ من نظام . . .

جمعتُ هذه الفصول، وقد ارتضيتُ لنفسي ان اكون حكماً وخصماً، فان كان ثمَّ في ما ذهبتُ اليهِ من رأيٍ، وتصرّفتُ فيهِ من فكرٍ، زللٌ ونظرٌ، فليذكر القارئ الاديب اننا اعتمدنا في هذا على غير مأخذ واحد وانا لم نزل نكابد هذا الامر ونقاليهُ، ونُناضل مختلف الآراء ونساجلها، حتى انتظم لنا رأيٌ خاصٌ، واتّفق لنا مذهب جديد، ولولا ذلك لما استجزنا الاقرار بهِ والتأكيد لهُ . . .

فزهٌ ازهٌ ايُّها النابغة فانك باشهر قليلة امكنك هكذا ان تقف على آراء جديدة لم تخطر على بال من سبقك واستخلصتها من اعتمادك على غير مأخذ واحد فاختلفت الآراء وساجلتها . ويا ليتك ذكرت لنا تلك التواريخ التي راجعتها لتستطرف من كي منهل استقيت تلك المعلومات التي دوّنت . ويا

وقد ضربتَ لنا مثلاً عن رأيك في ولادة المسيح اذ جعلت ولادتهُ في الناصرة بدلاً من بيت لحم ولم تقل انك اخذت هذا عن الكافر ربان وعدلت عن رأي الانجيل الطاهر بل عن سائر المؤرخين القدماء والمحدثين نصارى ومسلمين . فتريد ان يكفّر صغار مدارس الجمعية التبشيرية الانجيل ليتبعوا رأيك الذي استحييت ان تذكر مصدرهُ

ثمَّ انَّ النظر الاجمالي لهذا الكتاب الجديد يوعز الينا بغير ذلك من الخواطر فانَّ مؤلفهُ زانهُ بعدَّة تصاوير «زيتيَّة مما لم تنشر في العربية قبل اليوم» (كذا)

بل قُل انَّ كثيراً منها نُشر في العربية قبل اليوم وبهيئة اجمل واتقن كصورة الامير بشير وصورة محمّد عليّ ولويس باستور وغيرهم . وما كان اغناهُ عن نشر بعض هذه التصاوير التي هي عثرة في سبيل الناشئة كصورة الانسان الاوَّل في التصاوير التي استحسنها ونشرها في جزئي كتابهِ واخذها في قسمهِ الاوَّل بشروح نقلها عن الدروينيين . فزعم «انَّ هذه الصور تتصوّر الانسان الاوَّل منذ ثلاثة الف سنة تقريباً تراهُ ابكماً

(كذا) . . . ولا يفرق بين الجماد والحيّ » ومع كون هذا الانسان الوحشي بنكم لا يفرق بين الجماد والحيّ زعم « انهُ كان يعتقد بالحياة بعد الموت » فيا لها من متناقضة اتّصل اليها نابغتنا بفكره السديد وتعمّقه في التاريخ

فهذه هي التعاليم التي «عُرضت على اللجنة المخصصة لدرس الكتب فأقرّت هذا الكتاب لمدارس الجمهورية » فما قول وزارة المعارف الجليلة ! أيسرّها ان تراهُ في ايدي صغار مدارسنا؟

نظر في رفائف الكتاب

هلمّ بنا الان بعد هذا النظر العمومي نجيل رائد البصر في دقائق الكتاب فلعلّنا انخدعنا بظاهره فيشفع به باطنهُ فما أخيب ما كان ظننا به . فيمكننا ان نختصر ملحوظاتنا عن جزئيه بهذه الالفاظ الثلثة : نَسْخ ومَسْخ وسَلْخ

﴿١ النَّسخ﴾ ان طالعت القسم الاوّل من كتاب عمر ابو نصر اعني تاريخ سورية ولبنان من اوّل عهد الحضارة حتى اوّل القرن التاسع عشر وجدت كثيرًا منهُ منقولًا بحرفه عن الكتاب المطبوع في مطبعتنا الكاثوليكية سنة ١٩٢٤ معرّباً بقلم احد الآباء اليسوعيين . وقد سبقت جريدة البشير فبيّنت ذلك في عددها الصادر يوم الثلثاء في ٢٤ آب وبيّنت النَّسخ بالمقابلة بين النصّين . ولو شئنا لتوسّعنا في ذكر هذه المنقولات التي يصعب علينا ان نتظمها في باب « توارد الافكار » و« اتفاق الالفاظ والمعاني »

وعليه نقول لعمر افندي ان كان كتابك كما زعمت « عربيٌّ صرف خالص في انشائهِ من شوائب العجمة وخالص في تراكيبهِ من شوائب التقليد » فكيف استجزت ان تكسو كتابك بهذه الكسوة الخشنة التي وجدتها في كتب غيرك ولم تستنكف عن التزيّي بها في تأليفك ؟ العلّ الطاووس يرضى ان يتجمّل بريش « ابي زريق » ؟

﴿٢ المسخ﴾ آثار مسخ الحقيقة في كتاب عمر افندي ابو نصر تظهر في عدّة امور

١ رأيت مزاعمه الباطلة عن الانسان الاوّل واصله وزمانه . وقد عاد الى قوله في الفصل الاوّل من كتابه فزاد فيه لغطاً

٢ كذب في قوله (تحت صورة الفارس الصليبي) عن امبراطور الالمان الذي حرمهُ البابا غريغوريوس السابع « انهُ اضطرّ الامبراطور ان يأتي رومية حافياً عاري الرأس وان يقف على باب البابا ثلثة ايام بلياليهنّ طالباً الصفح والمغفرة » فكل كلمة من

قوله هذا تخالف الحقيقة تمامًا

٣ ما يقول (ص ١٥) عن سكان سوريا انهم كانوا « ساميين قطعاً » ويزعم انهم « اتوا من جزيرة العرب منذ أول عهدها بالحضارة » يناقض فيه نفسهُ اذ يزيد « ان البابليين كانوا يحكمونها قبل نزول الساميين فيها »

٤ ذكر (ص ١٦) الحثيين في القرن الرابع عشر قبل المسيح وجعلهم « قبائل متوحشة » واليوم قد اكتشف العلماء على آثار تمدنهم الراقي السابق كثيرًا لهذا العهد

٥ في فصوله الاربعة الاولى تراهُ ينتقل من امر الى آخر فيطفر طفر الغزلان بين تواريخ يبعد بعضها عن بعض مئات بل الوف من السنين فينسب الى احد الاطوار ما لا يصح إلَّا على سواها. يجعل الرئاسة الفينيقيين على البحر منذ اربعة آلاف سنة ثم يقول ان السومريين منذ خمسة آلاف سنة انزلوا الى خليج العجم من الدجلة (كذا) والفرات زوارق تجارية »

٦ في فصله السابع عن سوريا في عهد الرومان (ص ٣٠ــ٣٣) قد حصر هذا العهد بين سنتي ٦٠ ق م الى ٥٥ [illegible] يزيد الى هذه المدة القصيرة ... يعلم ان سورية [illegible] حكم الرومانية الى ان حلت محلهم حكم البوزنطي في اواخر القرن الرابع

٧ زعم (ص ٣٠) ان « فسباسيان (كذا) زحف على اليهود وحصرهم في اورشليم غير انه توفي قبل فتحها » وكلٌ يعلم ان فتح اورشليم حدث عدَّة سنين قبل موت فسبسيان الذي كان بويع بالملك فترك ابنهُ تيطوس ليتم فتح اورشليم وجلس هو على سرير القياصرة الى السنة ٧٩م فتمَّ الفتح سنة ٧٠ لا ٨٠

ومما قالهُ هناك انَّ تيطس « هدم الهياكل حجرًا حجرًا » ومن المعلوم انهُ لا يُعرف سوى « هيكل واحد » في اورشليم وبقيت حجارتهُ مرصوفة مرصوصة الى زمن يليانس الجاحد الذي اراد ترميمهُ فخرج لهيب من النار أخرب اساسهُ فلم يدع حجرًا على حجر

٧ وفي هذه الصفحة عينها خلط مؤرخنا الحقق بين الرسولين بطرس وبولس فقال:

فكان السوريون ينتقدون انهم قد صاروا من الرعايا الرومانيين لهم من الحقوق ما للروماني وعليهم ما عليهِ ألا ترى بطرس الحواري كيف نادى بذلك على ملإٍ من الناس ثقة منهُ انَّ في

هذه الحجة ما يكفيه شرّ اعدائه وخصومه »

وكلّ يعلم ان القديس بطرس لم يكن متجنّساً بالجنسية الرومانية وهو من البلاد الجليل . بخلاف القديس بولس الذي كان نال تلك النعمة ونادى بها لئلّا يجري به عقابُ غير الرومانيين (راجع اعمال الرسل ٢٢ : ٢٥) . فما لعمر افندي يولج نفسهُ في امور النصارى وهو لا يعرف تاريخ قومه المسلمين ؟

ومثلهُ ما ذكرهُ (ص ٣٤) « عن ظهور الارثذكسيّة في القسطنطينيّة ونشوء الاختلاف بسببها » فانّهُ نسخ ما لا يدرك معناهُ

٨ وكلّ فصله الثامن (٣٣ ــ ٣٨) يدلّ على انهُ ينقل ما لا يعقلهُ فتراهُ يذكر الامور دون التحام بالماني ولا تتابع في سياق الامور ينتقل من حادث الى آخر دون رابط بينهما . دونك مثلاً ما يقولهُ عن مدرسة بيروت الحقوقيّة (ص ٣٤) :

« وكانت اللغة الارامية ترداد انتشاراً ومدرسة بيروت الحقوقية تزيد رقياً وشهرة وكانت اللاتينية لغة التدريس . . . »

فاي علاقة يا ترى بين انتشار اللغة الارامية ورقي مدرسة بيروت التي لغتها اللاتينيّة أليس بين الامرين بون عظيم بل نوع من التناقض ؟ وقس عليهِ بقيّة هذه القطعة الشبيهة بالدرّ المنثور

وزد عليهِ اغلاطاً اخرى متعدّدة خذ مثلاً الصفحة ٢٢ حيث ذكر الرسالات التي دارت بين ملك مصر وعمالهِ فزعم انها اكتشفت في « تل العمارنة » والصواب « تل العمارنة » ثمّ زعم ان « عهدها يرجع الى القرن الخامس ق م » والصواب ان عهدها يرجع الى القرن الرابع عشر قبل المسيح . . قال عن الحروف الفينيقيّة « انها كانت مستعملة عندهم حوالي سنة ٩٠٠ ق م » ثمّ قال « انّ اللغة الفينيقيّة اوّل اللغات التي وُضعت في احرف هجائية وذلك قبل المسيح باثني عشر قرناً » ثمّ قال « انّ اقدم الكتابات الفينيقية يرجع الى ما قبل القرن السادس قبل المسيح » . فترى كم من الغلط في هذه الاقوال . ولو كان لهُ ادنى المام بتاريخ هذه السنين الاخيرة لعلم انهُ وُجد في جبيل ناووس احد ملوكها باحرف فينيقيّة ترقى الى القرن الثالث عشر قبل المسيح ويظهر من حُسن صورها انّها اقدم عهداً من ذلك وهذا الاثر الجليل قريب منهُ يمكنهُ ان يراه في متحف بيروت

لا يصح القول (ص ٢٤) « بأنَّ بني اسرائيل الاوائل انقسموا قسمين هبط بعضهم سوريا وذهب القسم الآخر الى مصر » فانَّ يعقوب والاسباط الاثني عشر سكنوا مصر الى أن اخرجهم منها موسى بعد ٤٠٠ سنة

هذه بعض امثلة عما مُسخَ به وجه التاريخ ولو تتبعنا الكتاب صفحةً صفحةً لأمكننا ان نتسع كثيراً في هذا الباب. وكذلك في القسم الاخير الذي خصَّهُ بتاريخ فرنسة (ص ٩٧—١٣٣) فانَّ فيه اغلاطاً تاريخية عديدة فتزل عمر افندي في ميدان ليس هو من فرسانه. فاين يا ترى وجد ان احد الرهبان أودى الملك شارل التاسع بخنجر ثأراً للدوق دي كيز. فان الملك شارل التاسع مات حتف انفه في احد قصوره سنة ١٥٧٤ لا في السنة ١٥٨٩ كما روى. فبقوله هذا يشنع على الرهبان ويمسخ التاريخ معاً

واعجب منهُ قولهُ (ص ١١٣) انَّ احد الكهنة قتل الملك هنري الرابع. ولا يجهل صغارنا ان القاتل هو فرنسوا راڤاليك المحبوس بمقتله. فترى كيف يحرف المؤرخ او نصر الاكليروس الكاثوليكي رهبانه. وكم مثل هذه الاوضاع [illegible] وقد ذكر عمر افندي جاريد [illegible] ان [illegible] الله به سيدنا [illegible] فرنسة الى حلم رهمي فقال: « رأت فيما يرى النائم ان شبحاً او ملاكاً يأمرها بعد قرائها فعدّت ذلك صوتاً سماوياً »

وهناك اقوال اخرى عديدة يضيق المجال عن ذكرها وبما رويناه كفاية لترى المعارف انَّها باختيارها لنابغتنا لكتابة تاريخ سوريا ولبنان وفرنسة لم تصب الهدف. وانها ان وضعت الكتاب في ايدي ناشئتنا تلقيهم في هاوية الضلال

﴿٣ السلخ﴾ هذا الباب واسع جداً فانَّ صاحبنا عمر افندي عوَّل على تاريخ الاب هنري لامنس المنون (La Syrie : Précis historique) فكاد يعرّب اكثر من نصفه دون تغيير يذكر اللهمَّ إلا ما اختصرهُ احياناً وتصرف به بحث اخرجهُ على غير معناهُ. والعجب انهُ لم يُشِرْ اليهِ إلَّا استطراداً فزاد « السَّلخ » على النسخ والمَسخ

وفي الختام لا يسعنا إلا ان نحتجَّ على الذين يتحاملون هكذا على مصنفات غيرهم فيدَّعونها ويعرضونها على المعارف كأنها اثمار دوحتهم وما هي الَّا غنائم سَلْبهم وتلصصهم